



حكايات من زمن المحن



2

محمد عبدالقادر الشيخ

تقديم:

تحية لك يا من تقرأ هذه السطور ... مع دعائي للمولى عز وجل أن يهبكم الصحة والسعادة والسرور ...

قد تجدوا فى هذا الكتيب الذي أضعه بين كريم أيديكم هنات نحوية وإملائية وأدبية فكم العتبى وأرجو شاكراً كريم تسامحكم معها إذ لم يكن أبداً من مقاصد رسالتي في هذه الحكايات أبراز مقدراتي اللغوية ولا حتى مناهجي الفكرية فلم أقصد بهذه الحكايات أمتاعاً أدبياً ولا ترفيهاً فكرياً لكم أو لنفسي بل ولم أقصد أبداً بناء أو تبني موقفاً فلسفياً أو سياسياً بل جل ما أردته من خلالها أن أنبه الغافلين لحقيقة ما جرى وما يجري منذ منتصف القرن العشرين وحتى هذه اللحظة التي نشهد فيها نهاية وشيكة للربع الأول من القرن الحادي والعشرين مع توضيح وجهة النظر التي يظهرها كل فريق من فرقاء الفرق ، وقد جمعت ذلك من خلال معايشة متجردة لما دار وما يدور حولي من أحداث وما خبرته عن أقوام وأوطان وما أختبرته من معتقدات وطرق تفكير ومدراس تربوية – لا أدعي إلماما بأصول علوم كثيرة بالصورة المتصورة لدى الكثيرين ممن أفاقوا على الدنيا فوجدوا من خطوا لهم مناهج العلم وحددوا لهم أطراً صارت لهم بالمرجعية التي لا يجوز لهم أن يحيدوا عنها قيد أنملة حتي لو تبين لهم خطؤها في بعض الأحيان أو رأوا إختلافها الفاضح والواضح مع ما يعيشونه من واقع ووقائع أحياناً أخرى.

أخلص من قولي بالتأكيد على أن حكاياتي هذي أعتبرها شهاداتُ شاهدٍ محايد على عصره وقد ألبستها ثوب الحكايات لما عهدته لدى الكثيرين من طباع ميالة للملل من الحديث الصريح والذي حتى لو لم يملوه لما علق بالذهن إلا لفترة محدودة كتلك التي إعتدنا جميعا أن تعلقها المواد الدراسية – عدا القصص والشعر ومختصر العبارات – وعادة نسيان ما فاض من الحديث قادت الناس قديماً ألى إستنباط العبارة الشهيرة :" خير الكلام ما قل ودل " فتعاهدت الأمم حِكماً وأقوالاً مأثورة تلخص كثير الشروح في قليل كلمات ، لكن ومن الجانب الآخر فقد لاحظ القدماء أيضا رسوخ الآيات الدينية والشعر والقصة والكثير من الحكايات في ذواكر الشعوب مما

حدا بهم لتقصي السبب الذي أدى لرسوخها فأتوا بعد دراسة استبطينة لصفات هذه الراسخات إلى حقيقة عمدوا بعدها لتعديل العبارة التي ذكروها سابقا لتصبح:

" خير الكلام ما قل ودل ... وجل ولم يمل "

أسأل الله أن يجعل لهذه الحكايات نصيبا من الإمتاع يبعد عنها الكثير من الملل وأن يجعلنا وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه وأن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن...

مع دعائي لي ولكم بالتوفيق...

محمد عبدالقادر الشيخ

السودان – في 1445هـ - 2024م

الجزء الثاني – الفصل الأول

[1.1] دعوة من مجهول

تجاوزت الساعة منتصف النهار بدقائق قليلة ...

كان الجو ينذر بالمطر وقد تلبدت السماء بالغيوم التي حجبت الشمس عندما اخذت أجرُ خطواتي جراً نحو ذلك المطعم الذي دعاني مجهول لم يفصح لي عن هويته لتناول طعام الغذاء فيه ... صراحةً لولا ما كنت اعانيه لحظتها من شظفِ العيش وسوء وتردي احوالي المادية لما قبلت تلك الدعوة لتناول الطعام مع ذلك الذي يرفض الافصاح عن شخصيته ...

في الطريق إلى المطعم كنتُ افكر في مدى جدية ذلك المجهول وتمنيت ان لا يخيب ظني وان يكون جادا في دعوته فقد مضى يومان لم اتذوق فيهما طعاما !!!

تسائلت في سري هل يمكنني التعرف علي مضيفي؟

ترى من يكون ؟

وماذا يريد مني ؟

وما الذي يدعوه لدعوتي؟

دلفتُ الي المطعم وتوجهت مباشرةً الى مكتب المشرف المالي والاداري للمطعم وبعد إلقاء التحية سألته ان كان يوجد حجز باسمي...

رحب ذلك المسئول بشخصي بحفاوة بالغة جعلتني أشعر وكأنه قد عدني شخصية هامة (في أي بي VIP) واشار للنادل واوصاه بأن يقوم بخدمتي وتلبية جميع طلباتي...

تملكتني الدهشة وأنا أسير خلف النادل الي الطاولة المخصصة لغذائي...

وما أن جلست على المقعد حتى حضر اداري المطعم ووقف امامي بكل احترام وابتسامة تضيء وجهه وقال:

(" إنه لشرف عظيم لمطعمنا أن يستقبل سيادتكم...")

ولعل الدهشة التي انتابتني لحظتها والتي شعرت بها تغطيني من رأسي حتى قدمي قد اثارت الريبة في دواخل ذلك الرجل ولكنه وبحنكة من يتقن فن " كيف تنال رضا العميل "، تصرف بلباقة فاخرج هاتفه الجوال واستاذنني في إجراء اتصال بصديقي بينما في الواقع اتصل على رقم هاتفي وما ان سمع رنين الهاتف في جيبي حتى زالت جميع الشكوك التي كانت قد اخذت طريقها لقلبه فبدا عليه الارتياح واعتذر بانه بدلا من الاتصال بصديقي اتصل بشخصي... ثم اعاد الاتصال برقم صديقي او بالاحرى ذلك الشخص الذي دعاني لتناول تلك الوجبة...

حال إنهاء المحادثة عاد المسئول بالنظر الي وهو يقول:

(" لقد اوصانا صديقك بالقيام بكامل واجب الضيافة بميزانية مفتوحة... لكنه لظرف طارئ يعتذر عن الحضور وسوف يرسل لكم السيارة بعد ساعة من الآن...")

قال ذلك واردف قبل ان ينصرف:

(" أتمنى أن نوفق في خدمتكم وان ينال ما نقدمه اعجابكم...")

واتبع ذلك بابتسامته الوضاءة وتوجه عائداً نحو مكتبه...

عاد النادل ومعه المنيو لكافة أصناف الواجبات والسلطات والحلويات والمشروبات ... وازدردت لعابي وأنا افكر من اين أبدأ والي أين انتهي وسمعت بطني تصدر أصواتا وكأن معركة حامية الوطيس قد اندلعت بين جنباتها...

اخذت ابحلق في المنيو وراحت نظراتي تتقافز بين القوائم المختلفة وشعرت بدوار خفيف يتملكني...

سمعت النادل يسألني:

(" هل أنت بخير يا سيدي؟")

فجأة نسيت أمر جوعي ووجدتني امسك بمعصم ذلك النادل وأنا اقول:

(" هل سبق ورأيت صديقي؟")

تملكتْ المسكين بعض الدهشة لكنه لم يحاول تخليص يده من قبضتي فقد اوصاه مديره أن يعاملني بصورة خاصة...

ابتسم في وجهي وقال:

(" نعم وكيف انساه فقد حضر أول مرة قبل شهر او نحو من شهر وجلس على ذات الطاولة التي تجلس عليها الآن وامسك بيدي تماما كما تفعل الآن ...")

فتنبهتُ لفعلتي فاعتذرتُ للمسكين وأنا اطلق سراح يده ثم اردفت:

("حقيقةً أنا آسف.. لكن هل لك أن تصفه لي؟")

واصل الرجل حديثه:

(" بالامس حضر صديقك وقام بالحجز وقد حملني وصية أسلمها لك ..")

قال ذلك واخرج من جيبه دفتراً صغيراً ومعه مغلف فضي اللون سلمني اياهم ثم عاد ليسأل من جديد:

(" بماذا يمكننا خدمتكم سيدي؟")

حملت الدفتر والمغلف وأدخلتهما في الجيب الداخلي لمعطفي ثم نهضتُ واقفاً وأسرعتُ خارجاً من المطعم ...

بدى لي الأمر محيرا ومربكا بعض الشيء فاسرعت الخُطى نحو المنزل وسرتُ تحت زخات حبات المطر الذي انهمر عقب مغادرتي للمطعم ...

ما ان ولجت غرفتي حتى اخرجت ذلك الدفتر والمظروف اللذين اعطانيهما النادل...

لم اكترث لما اصاب ملابسي من بلل فجلست على طرف السرير وفتحت الدفتر...

كانت الكتابة واضحة وقد خطت بخط جميل وبصورة منسقة وقد كانت في مجملها مذكرة يوميات تتخللها بعض السطور التي حوت معادلات كيميائية وصيغ لسلاسل لما ظننته لحظتها لمركبات عضوية او ما شابه...

بعد عدد من الصفحات بدت المذكرات كقصة يتحدث فيها الكاتب عن لقاءات جمعته بمن اسماه الفيلسوف ويتابع السرد ليضمنه ما كان يدور بينه وبين بناته الثلاثة من حوارات ...

كنت متعبا ومنهكا لعدم تناولني لأي طعام خلال اليومين الماضيين فتمددت على ظهري فوق السرير دون ان ارفع عيني عن المذكرات او اتوقف عن القراءة...

لا ادري كم مضى من الوقت ولكن الظلام الذي زحف متسللا الي مخدعي قد جعل القراءة متعذرة... ورغم ذلك فقد ظللت ممسكا بالدفتر والظرف الفضي وشعرت بالنعاس يغالب عيوني والاسترخاء يسري في جسدي...

سمعت طرقا على باب الغرفة وبوثبة واحدة وصلت الي الباب وما ان فتحته حتى تسمرتُ من الدهشة والرعب فقد كان واقفاً امامي ذلك الفيلسوف الذي تحدث عنه صاحب المفكرة متأبطا حقيبته الجلدية الصغيرة وقد وقفتْ الي جواره من قال عنها كاتب المذكرات بانها صغرى بناته...

نظرتُ اليهما باستغراب ودهشة ممتزجان بشيء من التوجس والذي تحول الي رعب جامح بعد ان فتحت تلك الصغيرة فمها مخرجة لسان ازرق مشقوق كلسان افعى وقد اصطفت من خلفه اسنان كاسنان حيوان مفترس!!!

احسست بشيء يضربني على صدري فنهضت مذعورا لانتبه لحقيقة أن الأمر لم يكن سوى حلم...

قفزت الي طرف الغرفة لانارة المصباح وما ان عم الضوء حتى وقع بصري على المفكرة والمظروف الفضي وقد سقطا على ارضية الغرفة امام السرير...

جلست متهالكا على المقعد المجاور لمقبس الكهرباء ووضعت رأسي بين راحتي ورحت اتسائل عن الحدود الفاصلة بين الحقيقة والحلم ...

[3.1] المختار

كان نومي في تلك الليلة متقطعا تخللته الكثير من الاحلام المزعجة والكوابيس والهلاويس...

استيقظتُ وأفقت بصورةٍ تامة عقب ارتفاع الشمس بمقدار رمح فوق الافق مما جعل حزماً من أشعتها الذهبية تتسلل إلى داخل غرفتي...

فجأة تذكرت المظروف الفضي الذي تسلمته مع دفتر مذكرات ذلك المجهول بعد ان فشلت في التعرف علي هويته التي لم يفصح عنها في مذكراته كما أن ذاكرتي عجزت تماما عن الربط بين خط كاتب تلك المذكرات وبين خطوط كل من عرفتهم او زاملتهم طوال سنوات حياتي!!!

التقطت المظروف وقمت بفضه فوجدت بداخله رسالة مقتضبة وبطاقة إئتمان مالي (كريدت كارد credit card) باسمي ، اما الخطاب فقد كان كالاتي:

(" سيدي المهدي

او المخلص

او المختار ...

باي اسم منها تسميت ...

أسهم معكم بهذا المبلغ اليسير الذي اودعته لكم في هذه البطاقة والتي يمكنكم الحصول على بقية معلوماتها ورقمها السري من ذات النادل بالمطعم ..

متمنيا لكم التوفيق في انقاذ البشرية...")

وجدتني اغرق في الضحك وقلت مخاطبا نفسي:

(" لقد استجاب المولى دعائي الذي اقتبسته من دعاء سيدنا موسى عليه السلام..:

. رب إني لما انزلت الي من خير فقير.

فها هي ليلة القدر تاتيني ببطاقة مالية ذهبية !")

وقبل ان اخرج لاستلام معلومات البطاقة من النادل رحت اتسائل:

"من منا المخلص أنا ام هذا المجنون الذي وضعته الاقدار في طريقي .؟"

ما أن ولجت إلى داخل المطعم حتى استقبلني موظف الادارة بابتسامته المضيئة وترحابه الذي يجعلك تحس بانك شخص مقدر ومرموق...

وبعد التحية قادني الى ذات الطاولة وهمس لي :

(" تسعدنا خدمتكم دائما سيدي... بالامس وعقب ذهابك حضر صديقك ووضع لكم رصيدا في هذا المطعم حيث يمكنك تناول ما شئت متى شئت ومع من شئت...

نتمنى ان تنال خدماتنا رضائكم")

انصرف الاداري ليحضر النادل حاملا المنيو وبعد التحية سلمني مظروفا فضيا جديدا من صديقي المجهول...

هذه المرة طلبتُ ما لذ وطاب من المأكولات والمشروبات والحلويات واكلتُ بتؤدةٍ وأنا أستمتع بكل قضمة اقضمها او رشفة ارتشفها لاحتفي واحتفل بتحول حظي العاثر الذي لازمني في كل ما مضى من عمري والذي كما يبدو قد انعكس كما يقولون مئة وثمانون درجة...

كان المبلغ المالي بالبطاقة كبيرا لدرجة اذهلتني فاخذت اتسائل عما إذا كنت لا أزال حياً في ذات كوكب الأرض ام أنني قد متُ وانتقلتُ للدار الاخرة او ما إذا كنت قد نقلتُ لكوكب آخر...

لم أجد تفسيرا منطقيا ولا حتى تفسيرا غير منطقي لما يحدث!!!

مرت أيام تبدلت فيها حياتي فبجانب المال الوفير في بطاقة الائتمان التي امتلكتها ووجبات الطعام الفخمة التي انتظمتُ في تناولها في ذلك المطعم والذي ما ان ادخله حتى اصير محل حفاوة وترحاب من الجميع...

نمتْ صداقة بيني وبين موظف الادارة من جانب وبيني وبين النادل من الجانب الآخر...

حاولت جاهداً ان اتحصل منهما على بعض المعلومات والتفاصيل التي يمكن أن تساعدني في جلاء سر صديقي المجهول ولكن كل ما وصفوه لي او حدثوني عنه كلما زادت حيرتي وجهلي به... فقررت ان اتوقف عن محاولة كشف سر هذا الصديق المجهول واستبدالها بالبحث عن سر تسميته لي بالمهدي او المختار او المخلص وطلبه او دعاءه لي بالتوفيق في تخليص البشرية...

اعدت قراءة تلك المذكرات عدة مرات ...

تفحصت المعادلات والصيغ الكيميائية التي وجدتها مكتوبة بين صفحات ذلك الدفتر... صراحةً قضيتُ اوقاتاً وانا اتطلع في تلك الرموز واخاطبُ المجهول حينا واضرعُ لله أحيانا أخرى كي ييسر لي فهم واستيعاب ما يجري...

اشتريتُ جهاز تلفزيون واشتركتُ في عدد من القنوات الفضائية ...

اتفقتُ مع صديقي مدير المطعم ان يرسلوا لي وجباتي بنظام الدليفري وكطلب خاص ان يرسلوها مع صديقي النادل...

صار النادل جليسي في وجباتي وسميري في وحدتي ...

ذات نهار أتاني النادل بوجبة الغذاء ولكن على غير عادته إعتذر عن الدخول وقد ظهر علي نظراته شيء من القلق...

سالته بصوت مضطرب فقد تبادر لي وخطر ببالي أن تكون الوديعة المالية المخصصة لطعامي قد نفذت أو أوشكت على النفاد فسألته:

(" ما الأمر؟ ماذا هنالك؟")

نظر الي لبرهة ثم قال بصوت يشوبه الاضطراب:

(" لقد حضرت اليوم إلى المطعم...")

وسكت ...

اقلقني صمته فعدت لسؤاله:

(" من التي حضرت؟")

تردد برهة ثم اخرج مظروفا فضيا ناولني له وهو يرتعش ويهمس من بين شفتيه:

(" سلمتني له لاوصله لكم")

ورغم ان الشكل المميز للمظروف يدل على صلته بصديقي الغامض الا أنني سألت النادل:

(" من التي سلمتك المظروف؟")

فهمس بصوت متهدج:

(" تلك الطفلة ذات اللسان الازرق المشقوق واسنان الذئب")

قال ذلك واستدار بسرعة ثم ولي هاربا...

كنتُ قد تعلمت مما عانيته في رحلة بؤسي ان المفاجات يمكن أن تؤجل لما بعد الأكل ...

لذلك وضعت المظروف الفضي على طرف الطاولة لحين الانتهاء من متعة الأكل...

حين فضضت المظروف عقب انتهائي من الاكل كانت بداخله ورقة بيضاء خالية رحت اقلبها ، ارفعها واخفضها ، اقربها من الضوء والنار ... لكن لم يكن على تلك الورقة من شيء البتة...

لغز جديد...

ترى من هؤلاء المجانين؟ وكيف اعتقدوا بأنني "شرلوك هولمز" او حتى "المحقق توقو موري عم المحقق كونان"؟

اضجعت على الاريكة الوثيرة التي اشتريتها من ما توافر لدي من مال امسكت بجهاز التحكم من على البعد واخذت اتنقل بين القنوات الفضائية... وفجأة ظهر على شاشة احدى القنوات صورة ذلك الفيلسوف الذي رأيته في منامي متأبطا حقيبته

الجلدية الصغيرة والي جواره الطفلة ذات اللسان الأزرق المشقوق واسنان الذئب والتي خيل لي انها قد راحت ترمقني من خلال الشاشة ثم رفعت رأسها واشارت نحوي بيدها ملوحة كمن تطلب مني اللحاق بهم...

احسست ببرودة تسري في اوصالي ورعشة تمتلكني فسقط جهاز التحكم من يدي وانغلق التلفاز ...

صبيحة اليوم التالي لمشاهدتي للفيلسوف وذات اللسان المشقوق حزمتُ حقيبةً صغيرة بعد أن وضعت بها بعضاً من الاغراض ثم توجهت صوب محطة الحافلات السفرية....

اتصلت من داخل الحافلة السفرية بصديقي النادل واخبرته بأنني سوف اتغيب عن المدينة ليومين فطلب مني ان أأخذ الحذر والحيطة وراح يدعو لي بالتوفيق والسلامة...

انطلقت المركبة واخذت تعب الأرض مسرعة نحو وجهتها...

اخرجت تذكرة السفر وتمعنت فيها وتذكرت تلك الحادثة التي تروى عن بروفيسور "آينشتاين" فقد قالوا بانه كان مسافرا بالقطار وحينما اتاه مراقب التذاكر راح يبحث عن تذكرته في محفظته ولما لم يجدها بدى عليه الانزعاج وراح يفتش جيوبه دون ان يجدها حينها قال له المراقب مهونا:

(" بروفيسور آينشتاين كلنا نعلم من تكون كما نؤمن بأنك ما كنت لتصعد للقطار بدون شراء تذكرة فهون عليك ")

واصل مراقب التذاكر عمله ففحص تذاكر بقية الركاب وقبيل مغادرته لتلك المقطورة نظر ناحية البروفيسور فوجده لا زال مواصلا البحث تحت المقاعد عن التذكرة التي اضاعها فاشفق عليه وعاد راجعا ليطيب خاطره فقال:

(" ثق يا بروف باننا جميعًا نعلم بانك قد اضعت التذكرة ولاشك في ذلك")

فرد "آينشتاين":

(" أجل... أجل ... اعلم انكم لا تشكون في ارتكابي لمخالفة لكنني ابحث عن التذكرة حتى أعرف منها وجهتي التي اقصدها في هذه الرحلة")

ابتسمتُ ونظرتُ في التذكرة وتسائلتُ ترى ما هي وجهتي في هذه الرحلة؟

اخذتُ اتصفح في مجلةٍ التقطتها من مكتبة صغيرة علي رصيف محطة الميناء البري قبيل صعودي للحافلة...

كانت الموضوعات رتيبة مملة مما افقدني التركيز فيها فرحتُ اتطلع من خلال نافذة الحافلة...

لا ادري كم مضى من الوقت منذ بدء الرحلة ولا كم من مسافة قد قطعنا حينما رفعتُ تلك المجلة وقد انفتحتْ على صفحةٍ عشوائية ما أن وقع نظري عليها حتى وجدتني انهض كالملسوع وتوجهت الي السائق والذي حينما طلبت منه السماح لي بالترجل عن الحافلة استغرب ذلك واخبرني بانه لا توجد في هذه المنطقة مدينة ولا قرية ولا بشر يقطنونها لكنني طمأنته واوضحت له بأنني سوف انتظر رحلة العودة غد في نفس الموقع الذي اترجل فيه الآن...

بعد ان تخلفت في تلك البقعة من الأرض عن الحافلة والتي ما أن ابتعدت عني حتى انتابني احساس عميق بالوحدة...

انحنيت ووضعت تلك المجلة على الأرض بجانب طريق الاسفلت ثم وضعت فوقها حجرا يمنعها من الحركة قبل ان اعبر الطريق لابدأ رحلتي نحو المجهول.

الجزء الثاني – الفصل الثاني

[1.2] البروف

كنا في الجزء الأول (الكتيب الأول) قد تركنا المستر "بيل" رئيس منظمة أكس واغنى اغنياء العالم مع زوجته الفاتنة "هيلين" وهما يترقبان وصول طوافة الاغاثة التي طارت لانقاذ السيدة "البروف" كما يسمونها...

كان "بيل" في تلك اللحظات لا يخفي فرحه بنجاة "البروف" كما لا يداري قلقه وتشوقه لوصولها لذلك تراه تارة مبتسما كطفل صغير وللحظات أخرى تحسه كمن اوشك ان ينفجر غضبا... على عكس الجميلة " هيلين" التي ظلت رابطة الجأش تسحر الالباب بابتسامتها الجذابة...

حال هبوط المروحية هرول المستر "بيل" ليستقبل "البروف" والتي لم تكن أقل سرورا منه ولكن لسبب مختلف ...

بعد السلام وفي وسط مظاهر الاحتفال بنجاة " البروف" التي تقدمت وزجت بنفسها بين الزوجين واضعة ذراعيها على كتفيهما وهي تقول:

(" على الرغم من أنه لم يمضي على وصولي الا ثلاثة دقائق وخمسة وثلاثون ثانية الا أنني قد سمعت بخبر زواجكما...

أتمنى لكما السعادة من كل قلبي..")

قالت ذلك ثم جذبت إليها رأس"هيلين" وهمست لها بحديث في اذنها انفجرت السيدتان ضاحكتين على اثره...

وضحك المستر "بيل" لكنه لم يضحك لما اضحكهما بل كانت ضحكته تعبيرا حقيقيا وصادقا عن انتهاء لحظات القلق والترقب والانتظار...

التفتت البروف ناحية الملتي ملياردير "بيل" وقالت بصوت ونبرة من تعود على اصدار الاوامر :

(" كما قلت فقد علمت خلال الدقائق الماضية على قلتها بالكثير من الاحداث التي وقعت أثناء فترة غيابي...

لكن لا اريد أن ينتشر خبر العينة البشرية التي التقطتها...

يجب أن يظل امرهم سرا لا يصل للعالم... ")

ضحكت "هيلين" ضحكة مقتضبة وقالت من بين اسنانها:

(" خيرا تعمل ... شرا تجني")

فردت البروف:

(" مازلت طفلة يا جميلتي الصغيرة...

في سبيل العلم تهون التضحيات...

وبالمناسبة اليس كافيا لهم ان اغلبهم قد عاش لأكثر من الالف عام؟")

بدا شيء من الامتعاض على وجه"هيلين" فقالت:

(" اتوافقين من أجل العلم ان تصير أي من بناتك الثلاثة عينة في مختبر تجاربك؟")

تكدر وجه السيدة البروف وانحدرت منها دمعة تركتها تسيل دون أن تخفيها او تمسحها ومن بين دموعها قالت:

(" أنت طيبة ورقيقة جداً يا صغيرتي...

صراحة لن اتوانى حتى عن ذبح ثلاثتهن بيدي هاتين لإجل العلم...

لا تعتقدي حبيبتي "هيلين" انني قاسية او متحجرة القلب فالله وحده يعلم مقدار حبي لهن لكن ذلك لا يمنعني من التضحية بهن من أجل تحقيق هدف سامي يخدم البشرية")

احتدت نبرة "هيلين" وهي تقول:

(" أي هدف اسمى من حياة الإنسان؟

وعن أي بشرية تتحدثون؟

من الذي يعطيكم الحق لحرمان الآخرين من ممتلكاتهم وثرواتهم وحياتهم لاجل اطماعكم ونزواتكم؟")

تدخل المستر "بيل" ليقول:

(" حبيبتي هيلين هوني عليك ...

الأمر ليس بالسوء الذي تتصورينه...

لقد دأبت البشرية على تقديم القرابين ...

أنظري فحتى عند المتدينين من البشر تجدين المسيحيون يؤمنون بأن الاله قد قدم إبنه قربانا وتجدي المسلمين ينحرون الهدي والاضاحي شكراً لله وقرباناً بعد أن كان الإله قد أمر جدهم "ابراهيم" بذبح إبنه "اسماعيل" ثم فداه بذبح عظيم...")

هتفت "هيلين" وهي تشير الي المحيط المترامي أمامهم...

(" ها هم قد اتوا؟")

فركض الجميع نحو المرسى بينما اقتربت سفن خفر السواحل وكلما تناقصت المسافة التي تفصلهم عن الشاطئ كلما تعاظمت ابتسامة كل من السيدة "البروف" والمستر "بيل"...

[2.2] **المستر لافي**

أحدثتْ الجميلة "هيلين" ثورة في حياة المستر "بيل" والذي لم يعد يفكر الا في كيفية ارضائها والتقرب والتودد إليها...

حقيقة لقد اضحى السيد "بيل" عاشقا ولهانا مدلها بحب زوجته الفاتنة "هيلين" والتي توفقت في ايقاظ ذلك الزنجي الطيب في دواخل زوجها حتى صار كثيرا ما يترنم بانشودة ايليا ابوماضي:-

("فوق الجُميزةِ سنجابٌ...
والأرنبُ يمرحُ في الحقلِ
وأنا صيادٌ وثابٌ ...
لكن الصيد على مثلي...
محظورٌ اذ اني عبدُ...
والديكُ الأبيضُ في القنِ
يختالُ كيوسف في الحسنِ
وأنا أتمنى لو أني...
أصطادُ الديك ولكني
لا أقدرُ إذ أني عبدُ...
وفتاتي في تلك الدارِ
سوداءُ الطلعة كالقارِ...
سيجيئُ ويأخذها جاري
يا ويحي من هذا العارُ!
أفلا يكفي أني عبدُ ؟ ")

وقف السيد "لافي" او اليهودي المتأنق كما يسميه رفاقه في 'منظمة اكس من أجل مستقبل مشرق' ، وراح يتطلع ناحية العاشقين وفي نظراته شئ من حقد تميز به حتى جرى منه مجرى الدم من العروق...

مرت دقائق كن بثقل الجبال على قلب ذلك اليهودي الماكر...

ما ان ابتعدت الجميلة "هيلين" عن زوجها قليلاً حتى تقدم "لافي" بخطواته الوثابة كنمر يثب لينقض على الفريسة... وما هي الا ثواني حتى كان قد وقف أمام السيد "بيل" وابتسامته الخبيثة توحي بفرح وسرور...

ابتدر "لافي" الحديث مهنئا ومباركا للسيد "بيل" زواجه من الرائعة "هيلين" ثم أردف في مكر:

(" رغم ثقتي الكاملة في رجاحة عقلكم وحصافتكم الا أنني أقول كما يقول الاخوة أعضاء المجموعة العربية مقتبسا من قرآنهم:

" وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين"

وما تذكرتي التي اقولها لك الآن الا بالمثل الفرنسي الشهير

("ابحث عن المرأة")..."

في تلك اللحظة عادت "هيلين" والتقطت كلماته الاخيرة فعلقت:

(" اواه أخي "لافي" أخيرا اظهرت حسن اطلاعك ولكن هذه المقولة والتي تنسب للقائد "نابليون بونابرت" قد اوضحها بنفسه حين قالها حتى لا يحسب المتسرعون انها محاولة للانتقاص من قدر المرأة او ربطها بالفتن والمؤامرات فقد قال : " أبحث عن المرأة فانها تهز بيسراها مهد الطفل وبيمناها العالم")

عقب "لافي" ضاحكا ومظهرا المزيد من التودد للزوجين :

(" دوما حاضرة ومتألقة اختي "هيلين" حتى احسبك يهودية أُماً عن أب")

فردت "هيلين" بشيء من التهكم:

(" لكنا شعب الله المختار").

استأذن"لافي" وانصرف...

عندها سمعت "هيلين" تنهيدةً أطلقها زوجها كمن ازيح عنه هما اثقل على صدره فابتسمت وأخذت تربت على كتفه فقال في سرور:

(" هدهديني حبيبتي فأنا طفلك في المهد ...

هدهديني بيسارك وهزي الدنيا بيمناك كما هزرت قلبي وعقلي وكياني ...")

من على البعد كان "لافي" المتأنق يطلق مع نظراته نيرانا لو لم تكن من بعد آخر من ابعاد العوالم الكونية الموازية والتي نعيشها لاحرقت الزوجين...

[3.2] السيد غطفان

أعلنت المذيعة الداخلية في مقر 'منظمة اكس من أجل مستقبل مشرق' للسادة الأعضاء عن قرب بداية جلسة الجمعية العمومية للمنظمة ودعت الحضور للتوجه للمقصف لتناول طعام الغذاء قبل الاجتماع...

كان كل عضو من الأعضاء يعرج قبل الجلوس على طاولته ليهنيء الزوجين: "بيل وهيلين" - بزواجهما ويتمنى لهما اطيب الامنيات - ..

عندما تقدم السيد "غطفان" من المجموعة العربية لتهنئة العريسين وضع امامهما على الطاولة صندوقين من صناديق الهدايا كتب على كل اسم المهدى إليه وقال مبتسما:

(" مبارك زواجكما...

أتمنى قبول هذه الهدايا البسيطة والتي تستحقان ما هو أفضل منها...

اتشوق لأن أرى ولي العرش "بيل الابن" قريبا ")

مثلت "هيلين" دور من ينشغل بفتح صندوق الهدية بينما كانت تراقب من طرف خفي تعابير وجه زوجها والذي ظهر عليه الامتعاض الشديد من كلمات السيد "غطفان" ...

صرخت "هيلين" بصوت منخفض:

(" واااو ...

يا للروعة...

انظر حبيبي لما اهداني له هذا المتخلف...

لاشك ان ثمن هذا العقد الماسي لا يقل عن نصف المليار...")

قالت ذلك ورفعت العقد الماسي فتلألأت الانوار براقة فلم يقو "بيل" معها على الصبر ففتح صندوق هديته ليجد تلك الماسة التي طالما تمنى شراؤها لكنه لم يفعل لارتفاع ثمنها مع أنه يعتبر الاغنى في العالم!!

همست "هيلين":

(" الآن يا حبيبي تجلت حكمتك لرفضك الاصغاء لي يوم سألتك: -
ما دمت تمقتهم لهذا الحد لماذا لا تفصلهم من المنظمة؟..")
واردفت:
(" كنت سوف اضيع هذا العقد الغالي على نفسي واضيع علي زوجي العزيز هذه المأساة")
رغم فرحته بالهدايا لم يخفي "بيل" استياؤه من "غطفان" وهمس مخاطبا زوجته الجميلة:
(" الم يكن من الامثل لهذا الغبي ان يهتم بشؤونه ويترك لنا أمر تحديد سلالتنا وولي عرشنا؟")
خطر لهيلين ان تمازحه في ذات السياق لكنها عدلت عن ذلك وامنت على قوله :
(" نعم أن هؤلاء المتخلفين دائما ما يحشرون انوفهم فيما لا يعنيهم...
الا توافقني أن هذا العربي كان سوف يكون أكثر نفعا للبشرية لو تبرع بثمن هذه الهدايا للجياع او المرضى او... "
وصمتت هنيهة وابتسمت وهي تضيف:
(" او للبحث العلمي الخاص بالقضاء على "الإنسان الذي نعرفه" لمصلحة ما بعد الإنسان الذي تسعى مؤسستنا العظيمة للوصول إليه")
لم يفت على "بيل" الاستهزاء الواضح من جانب زوجته الجميلة باهداف كان قبل زواجهما يقتل من يحاول الاستخفاف بها لكن وكما يقولون فان الحب غلاب ... نظر اليها نظرة كلها حب و قال:
(" ليته تبرع بها لصالح الأطفال الجياع في إفريقيا ")
وقبل أن تفغر الجميلة فاهها دهشة لما سمعت، علا صوت المذيعة الداخلية طالبة من الحضور التوجه لقاعة الاجتماعات...

[4.2] هيلين الجميلة

عقب الخروج من اجتماع الجمعية العمومية للمنظمة تأبطت "هيلين" ذراع زوجها وقد بدا عليها الاعياء الشديد....

لم يفت على السيد "بيل" ملاحظة إعياء زوجته فانتابه القلق وتضاربته الافكار والمخاوف ...

لم تشتكي كما لم يجد في نفسه الجرأة لسؤالها...

ما أن صعد الزوجان في السيارة حتى اجرى "بيل" اتصالا بمستشاره الطبي وطلب منه موافاتهم في الفيلا ...

تلقى "بيل" اتصالا من السيدة "البروف" والتي طلبت مقابلته على جناح السرعة لكنه اعتذر بظرف زوجته الطاريء ولكن ما قالته محدثته من الطرف الآخر جعله يشعر برعشة من اصيب بصعقة كهربائية ففغر فاهه وقطع المكالمه وراح يحدق من نافذة السيارة حينا ثم يلتفت الى زوجته أحيانا أخرى...

عندما وصلا الفيلا ترجلا من السيارة لكن "هيلين" لم تقو على السير فتشبثت مستندة بباب السيارة وهي تقاوم السقوط فاسرع زوجها لحملها بين ذراعيه كطفلة صغيرة... طلبت منه ان يمددها على الاريكة... فارقدها بكل رفق وجلس الي جوارها على الأرض...

لم يجرؤ على الحديث كما لم يستطع من منع الدمع الذي انهمر من عينيه...

بدت "هيلين" الجميلة كأميرة نائمة... بينما تسمر "بيل" كتمثال متحجر لولا تقاطر الدموع من مآقيه...

اخذت الافكار والاسئلة تتدافع وتتزاحم على رأس "بيل" وكانت كلمات السيدة "البروف" التي حين اعتذر لها بحالة زوجته الصحية فعلقتْ بسؤاله:

(" هل هي حامل؟")

فأخذ ذلك السؤال يتكرر صداه داخل عقل السيد "بيل" و اذنيه...

تارة يتذكر ما اشترطه علي هيلين قبل الزواج بأن لا ينجبا أطفالا ما لم يتم الكشف والقضاء على جين السلالة الزنجية...

ولكن شعورا جميلا واستحساناً لفكرة ان زوجته قد تكون حاملاً وأنه على وشك ان يصبح أباً بدأت تجد لها مكانا بين افكاره...

فراح يحدث نفسه:

(" أجل ... لا يهم كون أبي كان زنجيا...

لا ... لا ... ليس لذلك ادنى اهمية...

قد يكون حظ ابني مثل حظي فيولد أبيض اللون كبياض الثلج مثلي ومثل أمي ... ابيضاً جميلاً كزوجتي الجميلة "هيلين"...

وحتى لو أتى إبني فرضاً زنجياً اسود اللون كلون أبي فمن يجرؤ على الهزو منه أو استحقاره؟ ")

وأخذ يعنف ويلوم نفسه على تنكره لأبيه الذي جمع له كل هذه الثروة والذي أحبه كثيراً ليتنكر هو له بعد وفاته بسبب لونه ... يا لها من سخافة...

لم يدر كم مضى عليه من وقت وهو جالس الى جوار الأريكة التي مدد عليها حبيبته لكنه أفاق من أفكاره فجأةً على صوت الطبيب وهو يقول:

(" للرب ما أعطى وللرب ما أخذ")

صرخ "بيل" صرخة عظيمة قبل أن يسقط مغشياً عليه فوق جثمان "هيلين" الجميلة...

الجزء الثاني – الفصل الثالث

[1.3] الغواصة

كنا في الجزء الأول (الكتيب الأول) قد تركنا الغواصة وقد طمرت تحت الشعب المرجانية في أسفل تلك البقعة من المحيط بعد ان تعطلت جميع اجهزتها...

كان الكابتن متوترا وطلب من المهندسين تنفيذ خطة الطواريء وطلب من الدكتور الذي اتي بديلا للسيدة المسماة بالبروف ان يبقى هادئا ريثما يتمكن هو والعاملون معه من اصلاح الاعطال التي حلت بالغواصة ، وعندما استعلمه الأخير عن ماهية تلكم الاعطال اجابه بازدراء وكره شديد:

(" لابد ان ما اصابنا نتج عن سيء اعمال من يعتقدون أن البشر خدم لهم...")

فقال الدكتور:

(" الناس للناس من بدوٍ وحاضرةٍ ... بعضٌ لبعضٍ وان لم يشعروا خدمُ")

لم يكترث الكابتن بما قال الدكتور ومضى إلى غرفة التحكم والتي قد غرقت في ظلام دامس واختفى داخلها...

رجع المهندس الذي تم انزاله لغرفة الخروج الطاريء بعد ان عجز عن فتح البوابة المؤدية إلى خارج الغواصة ...

فاستشاط الكابتن غضبا وأخذ يتلفظ بفاحش الالفاظ في حق زملائه ومرافقيه بل طال سبابه ارباب عمله في 'مؤسسة اكس من أجل مستقبل مشرق' ...

لقد كان من الواضح للجميع ان الرجل اما أن يكون قد افرط في الشراب أو قد اصيب بلوثة من الجنون...

وفجأة توجه نحو الدكتور ووجه له لطمة قوية اطاحت به في ارضية الغواصة...

عندها هجم اثنان من الملاحين على كبتنهم وقيدوه وهو يسب ويلعن ويصدر التعليمات ويتوعد...

ثم بدأ الكابتن يغني اغنية جزيرة الكنز ويردد :

(" أربعة عشر رجلا ماتوا من أجل صندوق")

ومن ثم اعقب ذلك بموجة من الضحك وهو ينادي على "جون سيلفر" قبطان جزيرة الكنز...

بعدها انتحب الكابتن نحيبا مرا ونعى نفسه وجميع من معه...

ثم غط في نوم عميق...

بدأت نسبة الاكسجين تقل في هواء الغواصة...

اخذ بعضهم في السعال بصورة متواصلة...

تحسس الدكتور فمه الذي سالت دماءه اثر لطمة الكابتن... وراح يتذكر كم مضى عليه من عمر لم يتعارك خلاله مع احد...

فجأة وجد الدكتور نفسه يتذكر ذلك اليوم الذي مرت فيه الغواصة بغابات الطحالب النتروجينية والتي قد تصل في اعدادها الى مئات الملايين في كل وادي من اودية البحر المسجور الذي تلتهب فيه نيران الحمم البركانية تحت مياه المحيط...

وتحسر وهو يتذكر ما قاله له السيد "بيل" حين اخبره عن تلك الثروة الغذائية الهائلة التي لو تم استغلالها لما وجد الجوع سبيله لانسان فوق ظهر الأرض وكيف أن"بيل" قال له بكل صفاقة:

(" نحن لا نسعى لاشباع الناس بل من أكبر مصلحتنا ان يجوعوا")

ثم أردف:

(" جوع كلبك يتبعك")

تحسر الدكتور انه حينما هم ان يقول للسيد"بيل" ما قاله ذلك الاعرابي عندما مر بجثة الحاكم صاحب تلك المقولة:

(" لربما جاع الكلب يومًا فاكل صاحبه!!!")

تذكر الدكتور بانه لم يقل ذلك للسيد "بيل" لخوفه من ان يطرده ذلك المتعجرف من العمل بالمؤسسة وبالتالي يحرم من مواصلة ابحاثه المتخصصة والمخصصة للاسهام في مشروع "إنسان ما بعد الانسان" والمكرسة لدراسة اثر البيئة المائية العميقة علي الكائنات المعدلة جينيا ووراثيا....

فجأة عادت اجهزة الغواصة للعمل فنهض الدكتور من ارضية الغواصة وهو يصيح فرحا...

(" لقد عادت الاجهزة للعمل ..

هيا يا رفاق...")

لكن احدا لم يجبه!!!

وعندما تفقد الرجال بالغواصة كانوا جميعًا في عداد الموتى!!!!

تملكت الدكتور "مارتن" الحيرة وعند تفقده للاجهزة تبين له جهله التام حتى بكيفية إرسال رسالة استغاثة عبر تلك الأجهزة فتنهد عميقاً ثم جلس الي جهاز الكمبيوتر وبدأ في كتابة آخر مذكراته الي أورد فيها :

" لقد أتت نتائج التجارب تحت اعماق المحيط بنتائج مختلفة عن التجارب التي أجريت في المعامل الفضائية مثل (سكاي لاب) وتلك التي اجريت في المعامل تحت سطح الأرض مغايرة لما تم التعارف عليه في قانون "وحدة التشابه في الكون" وكانت الاختلافات عميقة عند التجريب على بعض الكائنات المعدلة جينيا وكما سجلنا في تجربة الديدان المعدلة والتي قادت في الفضاء لبروز رأس إضافي في الطرف الآخر للدودة وقادت تجارب تحت المحيط الى بروز جذع إضافي واخيرا اتت تجارب الاعماق السحيقة تحت الأرض لانكماش او اندماج الرأس والجذع معا في كرة دودية!!! ..")

[2.3] الكارثة البيئية

بدأ الضغط الجوي داخل الغواصة المطمورة تحت الشعب المرجانية في التغيير بطريقة مستغربة بحيث يزداد الضغط فيحس الدكتور "مارتن" بأن رأسه على وشك الإنفجار ثم يعود الضغط طبيعياً لبرهة ينخفض بعدها فيحس الدكتور بقلبه يكاد يخرج من صدره...

توجه الدكتور إلى حجرة القيادة في الغواصة وتمتم :

(" إن كان هلاكي قد اقترب فلن يعفيني ذلك من محاولة السيطرة على هذه الغواصة والأبحار بها ")

وأخذ ينشد:

أنت يا بحر أسير آه ما أعظم أسرك!
أنت مثلي أيها الجبار لا تملك أمرك
أشبهت حالك حالي وحكى عذري عذرك
فمتى أنجو من الأسر وتنجو؟

لست أدري

وبكل ما امتلك من قوة زحزح جثامين الملاحين التي كانت قد تكدست بتلك الغرفة... ثم جلس وقد قرر أن يحاول تحريك تلك الغواصة وهو يلعن جهله بالترميز الذي حمتله أزرار التشغيل في منصة القيادة وعلى جميع المفاتيح التي يمكنه الوصول إليها وتمتمم لاعناً السرية والحيطة والحذر الذي يجعل البعض يقررون ترميزا لا يفهمه إلا من أرادوا له أن يفهمه ...

قدر المخاطرة الكبيرة التي قد يحملها أسلوب التجربة والتعلم بالصواب والخطأ إذ أن بعض الأخطاء لا يمكن أن يعقبها تتبع للخلف يمحو آثارها ...

تذكر دكتور " مارتن" ذلك الفتى المدمن للمخدرات والذي كان يلتقيه في طريق عودته في العديد من المرات وكيف كان ذلك الغائب عن العقل يغني قائلاً:

(" كدا كدا بايظه ... بايظه ... بايظه

ما كدا كدا بايظه ...")

غمغم الدكتور :

(" ما كدا كدا بايظه")

ثم ضغط على أحد الأزرار...

بعد الدوي الهائل الذي نجم عن انفجار تلك الغواصة سبحت في مياه المحيط أنواع متباينة من الجراثيم والكائنات والمخلوقات العجيبة فاخذت الأسماك والحيتان والاحياء المائية تفرر من أمامها في ذعر ظاهر فاضطربت المحيطات والبحار والأنهار !!! ....

صعقت السيدة المدعوة بلقب "البروف" عند تلقيها اتصال السيد "بيل" والذي اخبرها فيه بوفاة الجميلة "هيلين" فهرعت الي فيلا الزوج المفجوع والتي عندما وصلتها كان الجميع في حالة من الاضطراب والفوضى...

بسرعة دخلت "البروف" في الغرفة التي اسجي فيها جثمان "هيلين" فوجدت "بيل" جالسا على الأرض وقد سال الدمع غزيرا من مآقيه...

لم تدر تلك المرأة لأول مرة في حياتها ما تفعل فتسمرت وراحت تنقل نظرها بين جسد الراحلة الجميلة وبين ذلك الزوج الباكي الحزين...

بعد مضي برهة من الزمن تنبه السيد "بيل" لوجود "البروف" فتحامل على نفسه لينهض ويسير نحوها ... فخطر ببالها وهي تراه يتقدم نحوها انه قد بلغ فجأة ارزل العمر !!!

وقف السيد بيل امامها وراح ينظر إليها من بين دموعه نظرة من يستنجد بها ثم قال:

(" ارجوك افعلي شيئا لاجلها...

اعيدي لها الحياة ...

وسوف اتنازل لك عن كل ثروتي... فقط رديها الي ...")

فتحت المرأة ذراعيها واحتضنته كأم حانية واخذت تمسح شعر رأسه تارة وتربت على كتفه وظهره تارات اخرى...

اخذت الذكريات تتقاذف رأس "البروف" فتذكرت بناتها الثلاثة وزوجها الزنجي الذي لا تشك في أنه لابد وأن يكون قد مات الآف المرات منذ أن تلقي نبأ مصرعها في ذلك الحادث المفجع ... وانحدرت دموعها وهمست وقد ترائت لها صورة زوجها :

(" ايها الزنجي المسكين... كيف حالك؟")

احست بارتعاش تملك السيد "بيل" وسمعت منه شهقة عظيمة فقد خيل له أن "البروف" تعلم عن اصوله العرقية وقال في نفسه لابد أن "هيلين" قد اخبرتها بسره

... تعجب "بيل" بانه لم يحس بالغضب تجاه زوجته المتوفاة بل راح يكرر كطفل صغير وبالحاح واصرار ما طلبه من تلك العالمة باعادة زوجته للحياة...

اخذت "البروف" الطلب بصورة جادة وتسائلت في نفسها لماذا لم تفكر في أمر مماثل من قبل فرغم انشغالها بالبحث عن سر الخلود لم تفكر يوما في اعادة الحياة لمن توفوا !!!

عجبت وهي تتذكر في أنهم قد قاموا بتصنيع إجهزة بديلة لتحل مكان الأعضاء المبتورة وتتلقى بصورة طبيعية الاشارات العصبية وتتجاوب معها كما كان يفعل العضو المبتور تماماً ولكنهم لم يطوروا ذلك لفكرة إعادة الحياة للمتوفين.

وطاف بمخيلتها "فرانكشتاين" ذلك الميت الحي والذي تم تجميعه من ثمان جثث... ثم فجأة ولو هلة خاطفة خيل "للبروف" انها قد رأت دون ان يكون لكاميرا او "جهاز كيرليان " وجود لحظتها بل رات بأم عينيها الهالة المحيطة بجثة "هيلين" وقد اخذت تومض بقوة ...

بلا وعي منها وجدت السيدة "البروف" نفسها قد ازاحت السيد "بيل" عن حضنها واسرعت لتجلس بالقرب من رأس الجثة وتهمس لها بصوت لم يفت على "بيل" سماعه:

(" تشجعي حبيبتي "هيلين" ... لا تستسلمي ولا تفارقينا ... الله قد جعل هذا الامر ليكشف لنا السر العظيم...")

لم يتمالك السيد "بيل" نفسه فسأل "البروف":

(" اتحدثينها وهي ميتة؟؟؟

هل تسمعك؟")

التفتت "البروف" ناحيته وقالت:

(" ما أنت باسمع منها")

الجزء الثاني – الفصل الرابع

[1.4] الأرض الغفر

بعد ان ترجلتُ عن الحافلة السفرية في ذلك المكان القفر وبعد أن وعدتُ السائق بانتظار رحلة العودة في نفس الموقع الذي غادرتهم فيه وكما ذكرتُ سابقاً فقد طمرتُ المجلة التي كنت احملها تحت الحجارة بالقرب من حافة طريق الاسفلت ثم عبرتُ الشارع وبدأتُ في السير والركض حتى كادتْ انفاسي أن تتقطع واحسستُ بشيء من التعب حينها لاحت لي على خط الافق نقطة سوداء يترفع منها شعاع ضوء بألوان الطيف وامضاً نحو السماء لا تحجبه أشعة الشمس و تجاريه سطوعا... اخذت اركض نحو تلك البقعة من الأرض وحينما اقتربت منها رأيت أمراة سوداء كلون القار وقد وقفت منتصبة وامامها ديك لا يقل عنها خيلاء وزهوا وجمالا...

كانت تلك المرأة تحمل بيمناها طفلة صغيرة سمراء اللون كحواء... وبيسراها رمحا كلما ركزتْه إلى الأرض تطايرتْ الاشعة الباهرة نحو السماء ملونةً بالوان الطيف وقد تمشقتْ قوساً وكنانة بها عشرة سهام...

عندما وقفتُ بين يديها سحرتني ابتسامها الاخاذة ثم رفعتْ راسها نحو السماء وتكلمتْ كمن يخاطب شخصا في السماء لكنني لم افقه كلمةً مما قالت اذ تكلمت بلغةٍ لم افهمها ... بيد أن صوتها كان عذباً ذو رنةٍ لم اسمع مثلها من قبل..

بعد ان فرغتَ من مخاطبتها من خاطبت من السماء اطرقت براسها نحو الأرض ثم جثت على ركبتيها ودون وعيٍ مني وجدتني اجثو مثلها لكن دون ان احول نظري عنها وجهها الملائكي الملامح...

مدت يدها اليمنى وسلمتني الطفلة ثم نهضت فنهضتُ مثلها ...

مشقتني القوس والكنانة ومن بعد ذلك عادت لتجثو مرة أخرى وجثوت غير انها هذه المرة لم تطرق نحو الارض بل كانت تنظر الي مباشرةً في العينين فانتابني احساس بأن تلك النظرات قد اخترقتني عميقاً...

مدتْ يسراها فمددت يسراي ووضعتها فوق كفها القابضة على الرمح ومعاً رفعنا الرمح ثم غرسناه نحو الأرض دون أن نحول ناظرينا إلى الاسفل وانتشرت الاشعة الملونة هذه المرة لتعم الأرض والسماء واحسستُ بسائل لزج يسيل متسلقاً اصابع يدي ورائحة كرائحة الدم تزكم أنفي وشعرت بكفها تنسحب من تحت كفي حتى إذا صرتُ القابض الوحيد على الرمح ابتسمتْ تلك المرأة واستدارتْ فتنبهت إلى انها تود الانسحاب ... فابتدرتها بالسؤال:

(" عذرا أين تذهبين؟ لماذا لا تاتين معنا؟")

قالت دون ان تستدير نحوي:

(" لم يؤذن لي بذلك؟")

قلت لها:

(" أنا ادعوك بأن تأتي فهلا اجبت!")

أحسستُ بها مترددةً فوجدتني أقول بصوت حازم:

(" ليس طلباً لكنه رجاء وأن استدعى الأمر فسوف أجعله أمراً.. يجب أن تأتي معنا لأننا نحتاجك")

التفتْ تلك الأبنوسة الفاتنة مستديرةً نحوي وابتسمتْ ثم رفعتْ نظرها نحو السماء وتكلمت مرة أخرى بتلك اللغة الغريبة التي لا أفهم منها شيئاً وبعدها بسطتْ يمناها نحوي فسلمتها الطفلة فقبلتها وقالت موجهة حديثها نحوي :

(" اسمها البشرية")

ابتسمتُ وتذكرتُ العبارة التي دعى لي بها ذلك الصديق المجهول:

("متمنيا لكم التوفيق في انقاذ البشرية ") !!!

إتسعت ابتسامتي وامسكتُ تلك المرأة من يسراها وسرنا لبضع خطوات...

فجأة تذكرت الديك الذي كان يقف امامها فنظرتُ فإذا به وقد تسمر إلى الأرض مضجراً بدماءه وعجبتُ كيف تسنى لتلك الدماء الصعود متسلقة الرمح لحظة انغرازه في قلب ذلك الديك...

كانت السيدة "البروف" متأبطةً بذراع زوجها الزنجي بينما تمسكت صغرى بناتها بأطراف ثوبها ... أما الفتاتان الأخرتين فقد توسطهما الفيلسوف...

جلس السيد "بيل" إلى جوار جثمان زوجته الجميلة "هيلين" ...

بينما جلستُ عند دفة السفينة وإلى جواري جلستْ السيدة "ميري" حاملةً الطفلة "البشرية" حينما أقترب من النادل ليهمس في أذني:

(" لقد ركب الجميع يمكننا الأنطلاق ")

تنحيتُ جانباً عن الدفة ورفعتُ يدي فإذا بتلك السيدة التي جلبتها "البروف" مع من جلبتْ من تلك الجزيرة التي كانت قد حملتها إليها الدلافين تتقدم ومعها رجل من عشيرتها فأدارا الدفة وأبحرتْ بنا السفينة تشق عباب المياه ومن حولنا تتطاير الحيتان والأسماك وبقية المخلوقات المائية وهي تفر هرباً من تلك المخلوقات العجيبة والتي كادت أن تغطي المحيط رغم أنه لم يمضى وقت طويل منذ إنفجار غواصة الأبحاث...

أخذت أنظر في ركاب السفينة ...

هذا السيد "بيل" وقد كان أغنى أغنياء العالم واليوم قد تخلى عن كل ما يملك واصطحب جثمان زوجته أملاً في أن تعود للحياة كما ودعته "البروف"...

الفيلسوف والنادل جلسا في ركن من أركان السفينة وراحا يتهامسان بينما جلس الرجال والنساء الذين جلبتهم "البروف" من جزيرتهم لتجري عليهم التجارب وقد بدى عليهم – برغم الإعياء الذي يتملكهم – سروراً وفرح...

أخذت أقارن بين الجميع فوجدت الكثير من الشبه والتشابه والإشتباه...

تسائلتُ عن الذي يجمع بينهم !!!

فجأة تقدمت نحوي السيدة "ميري" لتضع الصغيرة "البشرية" بين يدي ...

نهضت منتصباً حاملاً "البشرية" بيمناي ودون وعي مني رفعتُ الرمح بيساريي وركزته في أرضية السفينة ... فمعتْ الفضاء الأنوار الملونة بصورة باهرة أعمت

أعين الجميع لدقائق ... وحينما خفتتْ تلك الأضواء كانت السفينة تعبر منطقة تكاثر فيها الضباب وما هي إلا دقائق حتى رستْ السفينة عند ساحل الجزيرة فأسرع الجميع بمغادرتها...

نسوةٌ من نساء الجزيرة حملن جثمان "هيلين" وأشاروا على السيدة "البروف" و "ميري" و" الطفلة ذات اللسان المشقوق" وشقيقتاها بأن يتبعوهن...

بينما أشار الرجل الذي قاد السفينة مع تلك المرأة علينا معشر الرجال أن نتبعه...

أراد السيد "بيل" أن يلحق بجثمان زوجته لكن أحدهم أعترض طريقه وأشار إليه بكل أدب أن يسير مع الرجال...

عند وصولنا بعد مسيرة دقائق معدودات المنطقة السكنية والتي تميزت بمنازلها الشبيهة بالأكواخ التي كانوا يحكون لنا عنها في الحكايات توجه بنا الرجال نحو ساحة تتوسط المباني ووقف الجميع على هيئة دائرة كبيرة ...

لم أدر كيف أو لماذا حدث ذلك...

فقد تقدمت إلى مركز تلك الدائرة فوجدت فوهة حفرة صغيرة نظرتُ فيها ثم غرزت الرمح ليضيئ الجزيرة بضوء أبيض ساطع ...

وعندما رفعتُ نظري إلى الأعلى رأيت النسوة عند قمة التلة تتوسطهن "هيلين"...

نتوقف عند هذا الحد وقد تكون لنا عودة في المستقبل.

(محمد عبدالقادر الشيخ)

رب أهدي قوم فأكثرهم غافلون.
